سهل بن هرون

٣

[تناول الاستاذ محمد كرد علي في الجزئين السابقين الكلام على بيت سهل بن هرون ونسبه ومذهبه واخلاقه وطرف يتعلق في الكتابة واشهر تآليفه وحياته السياسية وحياته العلمية وطرفا يسيرا من نثره وشعره . وهو يتابع الكلام في هذا الجزء على نثره المترجم وشعره]

ومن كلامه (سهل بن هرون) يعزي بعض المهنئين بأجل الثواب : ادخلت من المصيبة على عاجل المصيبة ، وقال في الماضي : مصيبة في يغبرك اليك ثوابها خير من مصيبة فيك لغيرك ثوابها . وقال في سوق كل ذبيحة مقالة ان يبدأ بحمد الله قبل استخراجها ، كما يبدأ بالتسمية قبل استحقاقها . وقال : تعلموا العلم فلان يفدم الزمان لكم خير من ان يقدم بكم . ومن كلامه : العقل الذي يقوم مقام العقل ما سلم من غوغاء الشهوات وخلص من قذى الزلات . وكتب الى جعفر بن يحيى [illegible] يموت لكن اثبت الذي [illegible] وقال : الصديق لا يحاسب ، والعدو لا يحسب له ، اي لا يعتد به . وقال : من طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى توفيه رزقه فيها ، ومن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجه منها . وقال محمد بن زياد الزيادي البصري : وجدت على سهل بن هرون في بعض الايام فهجرته فكتب الي : « اما بعد فالسلام على عهدك ووداع ذي ظن بك في غير مقلية لك ، ولا سلوة عنك ، بل استسلام للبلوى في امرك ، واقرار بالعجزة عن استطاقك ، الى اوان فيأتك ، او يجعل الله لنا دولة من رحمتك والسلام » . وكتب في اسفل الكتاب :

ان كنت اخطأت او اسأت فني عفوك ما يمحو القبيح من الحسن
اتيت ما استحق عليه عقابك فجد بما تستحقه من المن

وهذا من الفظائع مكارم الاخلاق يجلى وهو يقرض عاجله .

ومن محاسن نوادره قيل لسهل لمه خاطب بعض الامراء فقال : لم كذبت فقال : ايها الامير لم اجد الكذاب بدا من كذبك . وحكي الجاحظ ان ابا الهذيل العلاف المتكلم سأله رقعة يكتب بها الى الخليع بن سهل يلتمس منه على ضائقة لحقته ، فكتب رقعة يوبخه بها ودفعها اليه ، فاوصلها الى الخليع فقال لغلامه اصعد فاضربه لا واقف عليه فاذا الهذيل واذا فيها مكتوب :

ان الضمير اذا سألتك حاجة لابي الهذيل خلافُ ما أُبدي
فاسحهُ روح اليأس ثم امدد لهُ حبل الرجاء بمخلف الوعدِ
وألن لهُ كنفاً ليحسن ظنهُ في غير منقصة ولا رفد
حتى اذا طالت شقاوة جدّهِ وضنائهِ فاجبههُ بالرد
وان استطعت لهُ المضرة فاجتهد فيما يضر بالغ الجهد

ولما قرأ الحسن رقعتهُ وقّع فيها: «هذه لك الويل صفتك لا صفتي» وامر لابي الهذيل بالف دينار فعاد اليهِ فعاتبهُ فقال سهل: ترى اين عزب عنك الفهم؟ اما سمعت قولي ان الضمير خلاف ما أُبدي، فلم يكن ضميري الخير ما قلت هذا. قال الجاحظ هذه من مغالطات سهل وبلاغتهِ. وروى الثعالبي قال: «حاجة ابي الهذيل» يضرب مثلاً للحاجة، يسألها الانسان لغيره وهو يضمر ضد ما يظهر، ولا يحب قضاءها، إما بخلاً بجاههِ واما لحاجة اخرى في نفسهِ. قال وكان ابو الهذيل سار الى سهل بن هرون الكاتب وكان خاصاً بالحسن ابن سهل يسألهُ الكلام في امرهِ، ويستعينهُ على ضائقة دفع اليها، فسار سهل الى الحسن فكلمهُ وقال لهُ: قد عرفت ايها الامير حال ابي الهذيل ومحلهُ وقدرهُ في الاسلام وانهُ متكلم قومه، والرادّ على اهل الالحاد، وقد فزع اليك لاضافة هو فيها، فوعدهُ ان ينظر لهُ ما يصلح حالهُ. وربما كانت ابيات سهل متبعثة من كوتو لاحظ بعد ان كلم الحسن ابن سهل بشأن ابي الهذيل شيئاً من التنور، فلما أُريد على الشفاعة بابي الهذيل مرة ثانية كتب تلك الابيات، ومع هذا ما خلت من نكتة جميلة

وابو الهذيل هذا هو شيخ المأمون وكان يقول فيهِ «اطلّ ابو الهذيل على الكلام كإطلال الغمام على الانام» وكان يأخذ من السلطان في كل سنة ستين الف درهم ويفرقها على اصحابهِ

وانشد الجاحظ لسهل يهجو رجلاً:

من كان يعمر ما شادت اوائلهُ فانت تهدم ما شادوا وما سمكوا
ما كان في الحق ان تأبى فعالمهم وانت تحوي من الميراث ما تركوا

واجمل بهذا الهجو الذي اقتصر فيهِ على الموعظة الحسنة. وهو القائل:

اذا امرؤ ضاق عني لم يضق خلقي من ان يراني غنياً عنهُ بالياس
فلا يراني اذا لم يرعَ آصرتي مستمرياً دوراً منهُ بايـاس
لا اطلب المال كي أُغنى بفضلتهِ ما كان مطلبهُ فقراً الى الناس

ومن شعره : أعان طرفي على جسمي واعضائي بنظرة وقفت جسمي على دائي
وكنت غرآبا تجني عليّ يدي لا علم لي ان بعضي بعض اعدائي

هذا هو الشعر الذي يسميهِ الافرنج بالشعر الوجداني (Lyrique) واكثر شعر العرب منهُ ، وهو مرآة شعور صاحبه وما يليهِ عليهِ قلبه ، ويزينهُ لهُ طبعه

ومن بدائع سهل : القلم لسان الضمير اذا رعف اطلق اسراره ، وابان آثاره . وكان يقول : اللسان البليغ والشعر الجيد لا يكادان يجتمعان في واحد وأعسر من ذلك ان تجتمع بلاغة الشعر و بلاغة القلم. وقال العقل رائد الروح ، والعلم رائد العقل ، والبيان ترجمان العلم

وقال : لا يُقدم على الخطبة الا اثنان فائق او مائق ، اما الفائق فثقته بنفسه تنفي عنهُ كل خاطر يورث الخجل والانقطاع ، واما المائق فانهُ لا يبالي اخطأ أم اصاب . وقال : لو ان رجلين خطبا او تحدثا او اختجا او وصفا وكان احدهما جليلاً بهيّاً وليباً نبيلاً ، وذا حسب شريف ، وكان الآخر قليلاً قميئاً (صغيراً ذليلاً) وباذ الهيأة (رثها) دمياً وخامل الذكر مجهولاً . ثم كان كلامهما في مقدار واحد من البلاغة ، وفي وزن واحد من الصواب ، لتصدع عنهما الجمع ، وعامتهم تقضي للقليل الدميم على النبيل الجسيم ، وللباذ الهيئة على ذي الهيئة ، ولشغلهم التعجب منهُ على مساواة صاحبهِ لهُ ، ولصار التعجب منهُ سبباً للعجب بهِ ، ولكان الاكثار في شأنه ، علة للإكثار في مدحه لان النفوس كانت لهُ أحقر ، ومن بيانهِ أيأس ، ومن حده أبعد ، فاذا تجمعوا منهُ على ما لم يكونوا يحسبونهُ ، وظهر منهُ خلاف ما قدروهُ ، تضاعف حسن كلامهِ في صدورهم ، وكبر في عيونهم ، لان الشيء من غير معدنهِ أغرب ، وكلما كان اغرب ، كان ابعد في الوهم ، وكلما كان ابعد في الوهم ، كان أظرف ، وكلما كان اظرف كان أعجب وكلما كان اعجب كان ابدع ، وانما ذلك كنوادر كلام الصبيان ومُلح المجانين ، فان ضحك السامعين من ذلك اشد ، وتعجبهم منهُ اكثر . والناس موكلون بتعظيم الغريب واستطراف البعيد وليس لهم في الموجود الراهن ، وفيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى ، مثل الذي معهم في الغريب القليل ، وفي النادر الشاذ ، وكل ما كان في ملك غيرهم . وعلى ذلك زهد الجيران في عالمهم ، والاصحاب في الفائدة من صاحبهم . وعلى هذه السبيل يستطرفون القادم عليهم . ويرحلون الى النازح عنهم ، و يتركون من هو أعظم نفعاً ، واكثر في وجوه العلم تصرفاً ، وأخف مؤنة واكثر فائدة ، ولذلك قدم بعض الناس الخارجي على العريق ، والطارف على التليد

الى ان قال : فاذا كان الحب يعمي على المساوئ فالبغض ايضاً يعمي عن المحاسن ،

وليس يعرف حقائق مقادير المعاني، ومحصول حدود لطائف الامور، إلا عالم حكيم، ومعتدل الاخلاط عليم، وإلا القوي المنة، الوثيق العقدة، والذي لا يميل مع ما يستميل الجمهور الاعظم، والسواد الاكثر. وقال سهل يوماً وهو عند المأمون: من أصناف العلم ما لا ينبغي للمسلمين ان يرغبوا فيه، وقد يرغب عن بعض العلم، كما يرغب عن بعض الحلال. قال المأمون: قد يسمي بعض الناس الشيء علماً وليس بعلم، فإن كنت أردت هذا فوجهه الذي ذكرناه، ولو قلت ان العلم لا يدرك غوره، ولا يسبر قعره، ولا يبلغ غايته، ولا تستقصى أصنافه، ولا يضبط آخره، فالامر على ما قلت، فاذا كان الامر كذلك فابدأوا بالاهم فالاهم، وابدأوا بالفرض قبل النفل، فاذا فعلتم ذلك كان عدلاً، وقولاً صدقاً.

ونقول على الجملة ان من النادرة ان يتم لانسان من المواهب والبيئة ما تم لسهل، فهو من عنصر فارسي [illegible] عريقة راسخة، ثقفته الحضارة العربية في أرقى بيئة، ونشأ في التاريخ الاسلامي [illegible] وتفصيله، ودخل في أمة قوية فتية [illegible] من أسباب النبوغ ما لم يكتب لغيره [illegible] وساعده على ذلك طول اجله، فانا لو فرضنا انه يوم دخل [illegible] في سنة اربع وثلاثين ومائتين [illegible] اتصل بالرشيد في [illegible] من عمر صاحبه الجاحظ [illegible] المتبعة [illegible]

[illegible] كتابه عندما [illegible] الرحمن الرحيم: أصلح الله أمركم، وجمع شملكم، وعلمكم الخير، وجعلكم من أهله. قال الأحنف بن قيس: يا معشر بني تميم، لا تسرعوا إلى الفتنة، فإن أسرع الناس إلى القتال أقلهم حياء من الفرار. وقد كانوا يقولون: إذا أردت أن ترى العيوب جمة فتأمل عياباً، فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب. ومن أعيب العيب أن تعيب ما ليس بعيب، وقبيح أن تنهى مرشداً، وأن تغري بمشفق. وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم، وإصلاح فاسدكم، وإبقاء النعمة عليكم، ولئن

اخطأنا سبيل ارشادكم ، فما اخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم . ثم قد تعلمون انّا ما اوصيناكم الاّ بما اخترناه لانفسنا قبلكم ، وشهرناه في الآفاق دونكم . ثم تقول في ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : « وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه ، ان اريد الاّ الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقي الاّ بالله عليه توكلت ، واليه أنيب » . فما كان احقكم في كريم حرمتنا بكم ، ان توعوا بحق فصدنا بذلك اليكم ، على ما رعيناه من واجب حقكم ، فلا العذر المبسوط بلغتم ولا بواجب الحرمة قمتم . ولو كان ذكر العيوب براً وفضلاً ، لرأيتماني انفسنا عن ذلك شغلاً ، وان من اعظم الشقوة ، وابعد من السعادة ، الاّ يزال يتذكر زلل المتعلمين ، ويتفاقم سوء استماع المتعلمين ، ويستعظم غلط العاذلين ، ولا يجعل حمد المعذولين » فبذا كنا نرون في تقويم اهلهم او الناهين والناقدين عليه منهم ومن غيرهم ، في آثار كراهة الدين على بسطتها ، وانه ازداد بارادتهم على اخير تعليمهم ، وحفظ فضل امانتهم ، وانهم اخطأوا في صوغهم مبانيه ، ولم يرعوا له حرمة ولا ذماماً . وذكرهم بحكمة جميلة . تلوهوان الناس يتذكرون خطيئات المعلمين ، ولا يذكرون جهل المتعلمين وعبر عنه بسوء الاستماع ، وهو من ارق التعابير . وذكرهم بالآية الكريمة التي تلى العبد الصالح ، وبعد ان بلغ من قوله جذابا الجد وبسط المسألة بيناً ، وبين باذليه على بخله ، ودعوة الناس الى طريقته ، وابان انه اشتهر بها في العالم ، وانها مما لا يعده احد في الشرف ، بل فضيلة من الفضائل النفس . بعد هذا اخذ يخاطبهم ، ويورد لهم الامثال التي وقعت له في هذا الشأن والتي وقعت لغيرها فيعدها عبرة فقال :

« عيتموني يقولي خادمي : اجيدي عجنه خبيراً : كما اجدته فطيراً ، ليكون اطيب لطعمه ، وازيد في ريعه . وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورحمة لاهله : املكوا العجين (شدوا عجنه) فانه احد الربحين . وعيتم عليّ قولي من لم يعرف مواقع السرف في الموجود الرخيص ، لم يعرف مواقع الاقتصاد في الممتنع الغالي فلقد أتيت من ماء الوضوء بكيلة يدل حجمها على كيلج الكفاية ، وأسفت من الكفاية ، فاضطررت الى تغريق اجزائه على الاعضاء ، والى التوفير عليها من وظيفة الماء ، وجدت في الاعضاء تضلاً على الماء ، فعلمت انه لو كنت مكثت الاقتصاد في اوائله ، ورغبت عن التهاون به في ابتدائه ، لخرج اوله على كفايته آخره ، ولكان نصيب العضو الاول كنصيب الآخر . فعجبني بذلك وشنعوه بجهلكم وفيحتموه ، وقد قال الحسن : وذكر السرف : انه ليكون في الماءوتين الماء والكلا ، فتمثل برضى بذلك الماء الذي اراده بالكلا »

دمشق محمد كرد علي